

مطالعات في الاسلام

أهمية المعتزلة في التاريخ

بقلم الأستاذ علي حسن عبد القادر

لم يحظ تاريخ الأديان والمذاهب عامة ، وتاريخ الدين الاسلامي ومذاهبه خاصة ، إلا بعدد قليل من الباحثين في هذا البلد ، مع أنه كان يجب أن يعتنى بخدمته أكثر من غيره ، وخصوصاً عند علماء الدين الذين هم أوسع به رحماً ، وأقرب إليه وشيجة ، وفوق ذلك فهو يجمع بين الفائدة في الدين والعلم ، فلا غرو أن يكون من أشرف العلوم وأوفرها لدى الباحثين لذة .

وقد أبلى في هذا المؤرخون المتقدمون بلاه حسناً ، وكان أول كتاب من هذا النوع هو كتاب « الآراء والديانات » الذي ألفه النوبختي ، وقد استوعب فيه الكتب اليونانية التي كان قد نقلها إلى العربية^(١) . وللسعودي صاحب مروج الذهب كتابان مختلفان في تاريخ الأديان ، وقد ورد ذكرها كثيراً في كتابه^(٢) . وقد كتب المسبحي المتوفى (٥٤٢٠ هـ - ١٠٢٩ م) في كتابه وصف الديانات والحضارات زهاء خمسمائة وثلاثة آلاف صفحة في تاريخ الأديان وحدها ، وقد قيل إنه بذل في هذه الناحية وحدها أقصى جهده ، وما وسعته نفسه من ذكاء وعلم . ثم جاء بعده أبو منصور البغدادي المتوفى (٥٤٢٢ هـ - ١٠٣١ م) وألف كتابه القيم في ذلك . كما تلاه ابن حزم الأندلسي المتوفى (٥٤٦٥ هـ - ١٠٦٤ م) وكتب مؤلفه في الملل والنحل ، الذي جمع فيه صنوفاً من العلم والحكمة ، على حين ألف البيروني كتابه (تاريخ الهند) فوصف فيه أديان الهند وصفاً شافياً^(٣) . وكذلك الشهرستاني وصاحب كتاب البدء والتاريخ وغيرهم من ألقوا في هذه الناحية تأليف جامعة ، وأنفوا عنها مشكوراً .

وللغربيين في العصر الحديث جهود حميدة في هذا الصدد ، ولهم في الدين الاسلامي مؤلفات تشهد لهم بالعلم الجهد ، والتمحيص والبحث ، الذي يدل على شغف وصبر فائق وإطلاع واسع .

وإنه ليأخذك العجب والاعجاب لدى قراءتك أمثال ما كتبه : فون كريمر ، وشتينر ،

(١) المسعودي ج ١ ص ١٥٦ ، التهرست ص ١٧٧ (٢) المسعودي ج ١ ص ٢٠٠

(٣) Meg, Die Renaissance, S 201.

وجولده زهير ، وجرم ، وغيرهم من المستشرقين الذي عنوا بهذه الأبحاث ، ولا يتقص فضل هؤلاء العلماء بعض هنات لهم يتغاضى عنها كل ذى يقين سليم ، وفكر ناقب .

وسأتناول هنا بعض أبحاث في تاريخ المذاهب الاسلامية ، كنت قد أعددت بعضها لتكون نواة لعمل صالح في هذا الموضوع ، وإني أبدأ الآن بالكلام على فرقة من الفرق ذات الشأن الجليل في الاسلام ، هي فرقة المعتزلة ، وقد أضعف أمرها وقلل من شأنها مايرميها به كثير من الناس من الزبغ والابتداع في الدين ، مع أن الاعترال يعتقد به كثير من أهل المذاهب الاسلامية ، حتى أهل الحديث الذين اعتاد الناس أن يحسبوه من ألد أعداء المعتزلة (١) . وإنه لما ينبغي للمسلم تورعاً ألا يطلق لسانه بالضلالة في أحد من المسلمين ماوجد إلى ذلك طريقاً ؛ ولعل خير ماتهندى به في هذا الموقف هذا الحديث ، قال مسعر بن كدام : « ما أدركت من له عقل كعقل ابن مرة ، جاءه رجل فقال : طافك الله جنتك مسترشداً ، إني رجل دخلت في جميع هذه الأهواء ، فما أدخل في هوى منها إلا القرآن أدخلني فيه ، ولم أخرج من هوى إلا القرآن أخرجني منه ، حتى بقيت ليس في يدي شيء ، قال : رأيت هل اختلفوا في أن محمداً رسول الله ، وأن ما أتى به من الله حق ؟ قال : لا ، قال : فهل اختلفوا في القرآن أنه كتاب الله ؟ قال : لا ، قال : فهل اختلفوا في دين الله أنه الاسلام ؟ قال : لا ، قال : فهل اختلفوا في الكعبة أنها القبلة ؟ قال : لا . . . فذكر هذا وأشباهه ثم قرأ « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » قال : فهل تدري ما الحكم ؟ قال : لا ، قال : الحكم ما اجتمعوا عليه والمتشابه ما اختلفوا فيه ، شد نيتك في الحكم ، وإياك والخوض في المتشابه ، فقال الرجل : الحمد لله الذي أرشدني على يديك فوالله لقد فمت من عندك وإني لحسن الحال » (٢) .

والمعتزلة فرقة كلامية ، لادنى كثيراً ، بالفقه ، وعندهم أن كل عهده مصيب في الفروع حسب ، واحتجوا بالدين أشككت عليهم القبلة زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، كل قوم إلى جهة ، فلم يأمر من أخطأ بالاعادة ، بل جعله بمثابة من أصابها ، قال بعض العلماء : وهذه المقالة تعجبنى ، ألا ترى أن أصحاب النبي قد اختلفوا وجعل اختلافهم رحمة ، وقال : بأيهم افتديتم اهتديتم ، وقال سفيان بن عيينة : إن الله لا يعذب أحداً على ما اختلف فيه العلماء .

وترجع أهمية المعتزلة في التاريخ إلى أن حركتها كانت الحركة الأولى في سبيل التحرر من البدع والخرافات التي سيطرت على عقول العامة ، وكانت ترى إلى التمسك بالدين الصحيح والآله الواحد العادل ، ولذا سموا أنفسهم « أهل العدل والتوحيد » ؛ يقول عنهم (جولده زهير) :

(١) أحسن التقاسيم ص ٣٩ ، (٢) أحسن التقاسيم ص ٣٦٥ .

« إننا لم نسمع من فم المعتزلة صوت المخالفة للدين ، ولكن سمعنا صوت الضمير المتدين الذي يناضل ضد كل مالا يليق بالله تعالى وعلاقته بعبيده » (١) ؛ وكانت تعاصر الدين الاسلامي في هذا الوقت أديان أخرى ذات عقائد محررة على نظم فلسفية ، ولم تكن قد بحثت عقائد الاسلام إذ ذاك بحثاً منطقياً ، فقامت المعتزلة بهذا ، واستمعت بما استعان به أهل الأديان الأخرى من جدل منظم ، وفلسفة دقيقة ، وحصنت الدين بسياج من القوة أمام خصومه ، وفي ذلك يقول القائل :

ماملة فوق ظهر الأرض من ملل إلا تهيب من تسأل معتزل
قوم إذا ناظروا صالوا بعلمهم صول البزاة على الدراج والحمل
له درهم فهماً ومعرفة وفطنة بلطيف القول والمجدل

فكانت المعتزلة بذلك أول من أدخل الفلسفة في الدين الاسلامي ، وذلك بعد أن طالعوا كتب الفلسفة اليونانية ، وحاولوا أن يوفقوا بين الدين والفلسفة ، واستخدموا لذلك طريقة عرفت فيما بعد بـ «علم الكلام» ، والتي هي بحق فلسفة الدين . يقول الاستاذ (شتينر) : « إنه يمكننا أن نقول : إن المعتزلة كانوا هم أول من اطلع على الفلسفة اليونانية وأنشأوا بهذا العلوم النافعة ؛ وكان غرضهم من ذلك الانتفاع بالثقافة اليونانية ليضيفوها إلى الدين الاسلامي » (٢) ؛ وكان أهل السنة ينفرون من هذا العلم في أول الأمر ؛ وينهون عن هذه الفلسفة ، إلى أن جاء أبو الحسن الأشعري الذي تدرب في مدارس المعتزلة ، وتسلح بأسلحتهم المنطقية التي أمدها بها ، ثم طارقه وواجههم بالخصومة ، وحرف حياته في معارضتهم بكل نشاط وتوفيق ؛ وكان هو أول من استعمل طريقتهم في البحث ، والمناظرة ، والاستدلال لنصرة مذهب أهل الحديث ، ومع ذلك لم يقدر واجهوده إلى وقت طويل ، وبقي عندهم معتزلياً ، ومن ذلك الحين سار أهل السنة في هذا الطريق ، وتابعوا المعتزلة في كلامهم ، وجاء المتأخرون وجدوا في نصرة مذهب الأشعري وقيادته ، على حين لم يجد المعتزلة قائداً لهم أو مجدداً في مذهبهم ، ومن هنا كانت حركة المعتزلة أساس الفلسفة الاسلامية ، ولا بد في دراسة هذه الفلسفة من معرفتها .

والمعتزلة كذلك هم الذين وسعوا علم أصول الفقه ، يظهر ذلك لمن تتبع تاريخ هذا العلم ؛ وكتب الأصول المتداولة مأخوذة من كتبهم ، يقول صاحب « المنية والأمل » : إن أصل كتب المتأخرين كالامام الرازي وغيره ، هو كتاب « المعتمد » الذي ألّفه أبو الحسن البصري لمعتزلي المعاصر لابن سينا (٣) .

(١) Goldziher, Vorlesung u-ber den Islam, 5. 96. (٢) Steiner, Mutaziten, S. 5.

(٣) أو نوله : طبقات المعتزلة للمراغبي ص ٢١

وكانت أهمية المعتزلة في تفسير القرآن الكريم مقطوعة النفي؛ فقد حدثنا الأشعري أن أستاذه الجبائي المعتزلي له تفسير في القرآن اعتمد فيه على ما أُلهمه قلبه (١)، وقد كتب على بن عيسى الرماني المعتزلي المتوفى (٥٣٨٥ - ٦٩٩٥ م) تفسيراً للقرآن، وقد سئل صاحب ابن عباد أن يفسر القرآن فقال: وهل ترك لنا على بن عيسى ما نكتبه؟ (٢) كما كتب النقاش المعتزلي المتوفى ببغداد (٥٣٥١ - ٩٦٢ م) تفسيره في اثنتي عشرة ألف صفحة، وقد قال السيوطي: إن أبا بكر الأدفاوي كتبه في عشرين ومائة جزءاً (٣)، وفاق هؤلاء جميعاً عبد السلام القزويني المعتزلي المتوفى (٥٤٨٣ - ١٠٩٠ م) فقد فسر القرآن في ثلثمائة مجلد، وفسر الفاتحة وحدها في سبعة مجلدات (٤)، وتبين طريقتهم في التفسير مما ذكره السيوطي من أن عبيد الله الأزدي المعتزلي (٥٣٨٧ - ٩٩٧ م) ذكر في تفسيره للقرآن مائة وعشرين رأياً في معنى اسم الله (الرحمن الرحيم)، ويكفي المعتزلة غمراً تفسير «الكشاف» للأشعري، وقد ذكره ابن خلدون في موضوعين من مقدمته وأثنى عليه ورغب في مطالعته، هذا على حين كان العلماء يتورعون إذ ذاك عن تفسير القرآن.

وجلة القول أن هذه الفرقة هي أول فرقة عملت على أن يتسع نطاق علوم الدين بعد أن كانت تدور في محيط ضيق، فهبت بذلك لازدهاء الإسلام وازدهار علومه الدينية.

وإن المذاهب الأربعة التي تسود العالم الإسلامي، قد نشأت في أيام السيادة العلمية للمعتزلة، فأبو حنيفة (٥٨٠ - ١٥٠ م)، ومالك (٥٩٥ - ١٧٩ م)، والشافعي (١٥٠ - ٢٠٤ م)، وابن حنبل (٥١٦٤ - ٢٤١ م)، قد أسسوا مذاهبهم أيام دولة المعتزلة ونهضتها، وهنا نذكر هذه الكلمات التي وصف بها الرحالة المقدسي المعتزلة من بين سائر المذاهب، قال: «وقما رأيت فقهاء أبي حنيفة - رحمه الله - يتفكرون من أربع: الرياسة، والحفظ، والخشية، والورع؛ والمعتزلة من أربع: اللطافة، والدراية، والنسق، والسخرية؛ والشيعة من أربع: البيضة، والفطنة، واليسار، والصيت؛ وأصحاب الحديث من أربع: القدوة، والهمة، والاتفاق، والغلبة... الخ» (٥).

وبعد؛ فهذه نواح المعتزلة تدعو للتقدير والاعجاب بهذه الطائفة المتنازعة، ولكن لا يحملنا هذا الاعجاب على أن ننسى كثيراً من مناهبهم، فلانفسى معاملتهم الخشنة لخصومهم

(١) Spitta, el Asuri. S. 128 (٢) أورنولد: طبقات المعتزلة للمرفعي ص ٩٥ (٣) السيوطي:

حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٣ (٤) وقال السبكي: إنه أُلهم في سبعمائة مجلد. طبقات ج ٣ ص ٢٣٠ (٥) أحسن

أيام قوتهم ، وقد سودت صحيفتهم بحنتهم لأهل الحديث في مسألة خلق القرآن ، كما أن هذه الفرقة قد انتمت إلى طوائف متعددة اشتغلت بالفلسفة ، وابتعدت كثيراً عن تعاليم الاسلام ، وكانت لهم سخافات كثيرة بأباها العقل السليم ، وهم الذين خرجوا بالاسلام - دين الفطرة - عن السهولة والبساطة إلى التعقيد والتعمق ؛ يقول الأستاذ (شقير) : « إن تاريخ الاسلام - كدين سماوي فطري - ينتهي بحجى المعتزلة أولاً ، وأهل السنة الذين تابعوه آخراً »^(١) ؛ نعم فإنه منذ ذلك الحين الذي ثارت فيه هذه العجاجة الكلامية ، وفزع في الأمة إلى اصحاب الفلسفة في أمر دينها ، اختفت وراء ذلك آيات من الجمال والفطرة في الدين ، وتوعرت سبله المتبسرة ، وبساطته الصافية . وأين الدين من الفلسفة ؟ وأين الشيء المأخوذ بالوحي النازل من الشيء المأخوذ بالرأى الزائل ؟

أما نشأة هذه الفرقة ونهضتها ، ثم كيف اضمحلت ، وغلب عليها مذهب السنة ، والجماعة في العالم الاسلامي ؛ فهو ما سنعالجه فيما يأتي إن شاء الله تعالى .

على حسن عبد القادر

Steiner, Mutaziliten, S. 92 (١)

مَحَطَّة

راديو مصر الملكية

بأول شارع فاروق بالعنبة الخضراء بعمارة الأوقاف حرف « هـ » تليفون ٥٣٢٥٢
إذاعات غنائية ، موسيقى ، محاضرات لنشر الثقافة العامة ، مسابقات
وتسهيلات خاصة لجميع التجار المصريين الذين يعارنون الغرفة التجارية
في مصر والاسكندرية لإذاعة إعلاناتهم . تسهيلات أخرى لشراء
آلات الراديو للمشاركين على اختلاف أنواعها .
والادارة في حاجة الى (بلاسيات) لعمليات الاعلانات بضمان مالي أو
شخصي ، نستمكن من معونة التجار المصريين في اتصالهم بالجمهور المصري .
عاونوا هذا المشروع المصري الصميم ، ليتحقق غرضه الاساسي في
نشر الثقافة العامة ، والمساعدة في النهضة الاقتصادية المصرية .